

تاريخ استقبال المقال: 2014/12/18 تاريخ قبول نشر المقال: 2015/03/06 تاريخ نشر المقال: 2015/06/30

الإنسان بين الفعل واللافعل عند مالك بن نبي

أ. خليل حجاج

جامعة تيارت

ملخص

لقد شكل الإنسان موضوعا للنظر الفلسفي من اجل فهمه و تقويم نظره و سلوكه لما فيه صلاحه الفردي والجماعي في حياته و بعد مماته، تعتبر مساهمة مالك بن نبي في هذا الباب من المساهمات البارزة في الفلسفة وهي التي بناها باستلهامه للتراث الفلسفي و الديني و من خلال معابنته لواقعه .
لقد ظل موضوع الإنسان منظورا إليه في شموليته مخمورا في فلسفة مالك بن نبي و لم ينل ما يستحق من البحث والنظر ، و تم التركيز في فلسفته على أرائه الميتافيزيقية و قضايا جزئية في الفلسفة النظرية ، على العموم لم تلق فلسفته العملية العناية التي لقيتها النظرية و لم تبحث بحثا شموليا في كل أبعادها.
و من اجل الوقوف على البعض منها نتوقف عند ضبط بعض المفاهيم هي كالآتي :
ما هي الفاعلية ؟ ما هو الفاعل؟ ما هو الإنسان؟ ما هي حقول الفاعل؟

human Between action and inaction at the thought of Malik bin Nabi

Abstract :

The goal from this study is to analyses Malek ben nabi's opinions concerning the human being phenomenal He established deep studies concerning this item due to different opinions of different specialists He thought that the problem was related in civilization and he exposed a project about civilization to do different changes for the society From recycling the human being soul with a strong base and also from investigating experiences from different movement and Islamic paths Malek ben nabi rather than others used results of human science to consolidate his ideas by giving the birth of some theories among them. The civilization was built in three bases 'the ground 'the tense and the humanitarian being. This last one is considered as the most important element of civilization Lost of Islamic world was the wrong usage of the ground from moujahidines. They found that the human being used the ground and tense to achieve his goal in history

مقدمة:

الفاعلية هي النشاط، أو الممارسة، أو استخدام الطاقة، فنقول: فاعلية الفكر أي نشاطه، وهو مفهوم حديث النشأة، يقول إبراهيم مدكور في مفهومه ونشأته: «أطلق هذا اللفظ في أوائل القرن الماضي على قسم من أقسام علم النفس، ففيل الفاعلية أو الحياة الفاعلة (Vie Active)، وهي تشمل البحث في الظواهر النفسية المتعلقة بالنزعات، والغرائز، والعادات، والإرادات، ثم أطلق بعد ذلك على كل عملية عقلية، أو بيولوجية، متوقفة على استخدام طاقة الكائن الحي، أو على كل عملية عقلية، أو حركية تمتاز بالتلقائية، أكثر منها بالاستجابة»⁽¹⁾.

وأما جميل صليبا فيقول في مفهوم الفاعلية: «تطلق الفاعلية في علم الطباع ومذهب الفاعلية (Activisme) هو القول إن جوهر الحقيقة هو الفعل، ولهذا المذهب جانبان: جانب عملي، وجانب نظري، فأما العملي فيبحث في السلوك، من جهة اتجاهه إلى تحقيق الأشياء في الخارج، وأما النظري فيبحث في الفكر، من جهة ما هو مبني على العمل، متعلق به، بحيث يكون العمل ميزانا توزن به قيمة الفكر»⁽²⁾.

ومن الفاعلية الفعل والفاعل والفعال.

أ. مفهوم الفعل: الفعل له عدة تعاريف منها ما يأتي:

1. يقول أحمد رضا: «الفعل حركة الإنسان، وإحداث شيء من عمل، أو غيره، والتأثير من جهة مؤثر في فعال، وأفعال»⁽³⁾.

2. يقول ابن منظور: «الفعل كناية عن كل عمل متعد، أو غير متعد»⁽⁴⁾.

3. يقول الجرجاني، «الفعل هو الهيئة العارضة للمؤثر في غيره، بسبب التأثير أولا، كالهئية الحاصلة للقاطع بسبب كونه قاطعا، وفي اصطلاح النحاة ما دلّ على معنى في نفسه مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة، وقيل الفعل كون الشيء مؤثرا في غيره كالقاطع ما دام قاطعا، والفعل العلاج ما يحتاج حدوثه إلى تحريك عضو، كالضرب ولاشتم، والفعل غير العلاج ما لا يحتاج إليه كالعلم، والفرن»⁽⁵⁾.

4. يقول جميل صليبا: «الفعل في اصطلاح الفلاسفة يأخذ عدة معان: في المعنى العام يطلق على كون الشيء مؤثرا في غيره، ومثاله أفعال الطبيعة كتأثير النار في التسخين، فهي فاعلة والمتسخن منفعل، وأفعال الصناعة كقاطع، مادام قاطعا، ومنه تأثير الخطيب في الجمهور، وتأثير المربي في الطفل، وتأثير الطبيب في الشفاء، ويطلق في علم الأخلاق على التأثير الصادر عن الموجد العاقل، من جهة كونه متعلقا بغرض كفعل الشجاع، ويطلق في علم النفس على الحركة الصادرة من الكائن الحي لتحقيق غاية معينة، وهو إما أن يكون إراديا كالفعل الذي يقوم به الإنسان عن روية، وفكر، وإما أن يكون غير إرادى، كالأفعال المنعكسة والأفعال الغريزية»⁽⁶⁾.

5. يقول أحمد زكي: «يأخذ الفعل عند علماء الاجتماع اصطلاحين:

العمل أو الإجراء (Action) وهو مجموعة حركات منظمة، تتجه إلى التغيير في العالم الخارجي، وتستهدف غاية ما، ويقال من الناحية الاجتماعية عمل مشترك وعمل جماهيري، وهي الأعمال التي يشترك فيها مجموعة من الأفراد النشاط (Activité) هو كل عملية عقلية، أو سلوكية، أو بيولوجية متوقفة على طاقة الكائن الحي، وتتمايز بالتلقائية أكثر منها بالاستجابة»⁽⁷⁾.

ب. مفهوم الفاعل: الفاعل له عدة تعاريف أيضا ومنها:

1. يقول الجرجاني: «الفاعل ما أسند إليه الفعل، أو شبهه الفعل على جهة قيامه به، أي على جهة قيام الفاعل بالفعل، ليخرج عنه مفعول ما، لم يسمّ فاعله، والفاعل المختار هو الذي يصحّ أن يصدر عنه الفعل، مع قصد وإرادة»⁽⁸⁾.

2. يقول جميل صليبا: «الفاعل في علم الأخلاق هو الموجود، الحر، المسؤول عن أفعاله، من حيث هو القوة، التي تقلب معطيات الحسّ المفردة، والمشخصة إلى كليات مجردة، والعقل مصطلح وضعه شراح أرسطو، وأطلقه فلاسفة الإسلام على العقل المباشر، وسمي فعّالا لأنه يهب الصور للعقل الإنساني، ويؤثر فيه حتى يرفعه إلى درجة العقل المستفاد، والفاعل، أو الفعّال من له القدرة على الفعل أو ما يتصف بالنشاط، والفاعلية، ويطلق على الأشياء والأشخاص، نقول: دواء فعّال أي شاف، ورجل فعّال أي نشيط، ويطلق الفعّال في علم الطباع على الشخص المتصف بالانفعال، أو بالميل إلى التأمل، والفاعل ما يحدث أثرا»⁽⁹⁾.

3. مفهوم الإنسان:

الإنسان جمع أناسي، وأناسية، وأناس، وناس، وهم البشر للذكر والأنثى، أو غير الجنّ والملاك، والإنس الواحد إنسي، وأنسي والإنسانية ما اختص به الإنسان، وأكثر استعمالها للمحامد من نحو الجود، وكرم الأخلاق. وأما في اصطلاح العلماء فيختلف مفهومه من فريق لآخر، ويجمع هذه الاختلافات جميل صليبا بقوله: «يقول الفلاسفة الإلهيون إن الإنسان هو المعنى القائم بجهد البدن، ولا مدخل للبدن في مسماه، فالإنسان شيء مغاير لجملة أشياء البدن، ولكن جمهور المتكلمين يرون أن الإنسان عبارة عن هذه البنية المخصوصة، المحسوسة، وهن هذا الهيكل المجسم المحسوس، والحق أن الإنسان مكوّن من هذه الجملة الجسمية المصوّرة، ومن تلك الجملة النفسية المؤلفة من حالات متداخلة، كالانفعال، والإحساس، والإدراك، والتعقّل، والإرادة، فهو إذن جسم، وعقل، ويرى بعض الصوفية أن الإنسان الكامل الحقيق هو البرزخ بين الوجود والإمكان، والمرآة الجامعة بين صفات القدم، وصفة الحدثان، وهو الواسطة بين الحق والخلق»⁽¹⁰⁾.

1. حقول الفاعلية:

الفاعلية عند مالك بن نبي تعني عنصر الحركة الدافعة في الإنسان، وتعني أيضا أن يستخدم الإنسان ما تحت يديه استخداما مباشرا مؤثرا، وإن يبذل أقصى جهد للرفع من مستوى حياته.

وتمتد حقول الفاعلية إلى كل وسائل التفكير، كما تشمل كل المواقع من البيت والأسرة، إلى المدرسة والنادي، وسائر مرافق الحياة، وبظل الفرد هو الحقل الأول للفاعلية، لأنه المحور الأساسي في عملية البناء الحضاري، ولذلك يرى مالك بن نبي أنه يجب أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ مستخدمين التراب، والوقت، والمواهب في تحقيق أهدافهم الكبرى.

وإن إيجاد هؤلاء الرجال يكون عن طريق توجيه الأفراد وتربيتهم، وإن البناء الاجتماعي هو حسيطة تفاعل متبادل بين الطرفين، حيث إن الفرد يمد الجماعة بالفاعلية، ويستمد منها بدوره فاعليته، وهو ما يوضحه ابن نبي بقوله: «حين نحلل الطاقات الاجتماعية بصفة عامة، نجد أنها تتضمن أولا، وقبل كل شيء الفرد كأداة وهدف، فالطاقات الاجتماعية تنتج عن الفرد وتعود إليه، فالفرد الصالح يشارك في بناء المجتمع، وإن عمله يعود إليه في صورة ضمانات اجتماعية تكفل له توجيه طاقاته الفردية»⁽¹¹⁾.

وأما أول مرحلة من مراحل بناء الإنسان الفاعل في نظر مالك بن نبي فهي صلاح عقيدته وتحريكها حيث يقول: «ليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو الاجتماعي، وهي تتخر مجتمعاتنا، ويقصد بالأفكار السلبية الأفكار الميتة والأفكار القاتلة، فالأفكار الميتة والأفكار القاتلة، فالأفكار الميتة هي تلك الأفكار العقيمة التي لا تقبل التغيير، ومن ثم تعرقل مسيرة النمو والتقدم، ويقول عنها ابن نبي: "إن كل مجتمع يصنع بنفسه الأفكار التي ستقتله، لكنها تبقى بعد ذلك في تراثه الاجتماعي أفكارا ميتة، تمثل خطرا أشد عليه من خطر الأفكار القاتلة، إذ الأولى تظل منسجمة مع عاداته وتعمل مفعولها في كيانه من الداخل"»⁽¹²⁾.

وأما الأفكار القاتلة فهي تلك الأفكار التي نستعيرها من الآخرين أو التي تنتقل إلينا عن طريق الاحتكاك مع الشعوب الأخرى، وينقلها إلى مجتمعنا في أكثر الأحيان السائح أو التاجر، وهما بمقتضى وراثتهما عندما يسافران إلى البلدان الأخرى لا يذهبان -في الغالب- إلى المهمل الذي تولد فيه الحضارة، ولا إلى المصنع الذي تصنع فيه، ولكنهما يذهبان إلى الأماكن التي تتعفن فيها، أو التي تقطر فيها، فيذهبان إلى الحانات والملاهي.

ويرى ابن نبي أن الأفكار السلبية أشد خطرا وأشد فتكا من الاستعمار، ومن القابلية للاستعمار، وهذه الأفكار قد انسلخت عن جذورها، وانحرفت عن مثلها العليا، ولذلك لا نجد لها جذورا في العاصرة الثقافية الأصلية. والمشكلة المترتبة عن علاقتنا بالثقافة الغربية لا تتعلق بالثقافة الغربية نفسها، وإنما تتعلق بسلوكنا نحن اتجاهها، والعقول السطحية في بلداننا تلتقط الجزء الميت من تلك الحضارة لأنها تقع في خلط بينه وبين الثقافة الغربية، وهذه الأفكار الميتة تتحول في مجتمعاتنا إلى أفكار قاتلة يمتلكها، إنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي»⁽¹³⁾.

وأما رد الفاعلية إلى عقيدته فتكون بدعوة هذا الإنسان إلى العمل وتحصيل العلم، والالتزام بالأخلاق، وبصورة أعم نعمل على تغيير نفسه، لأن تغيير الوسط الاجتماعي مرتبط بتغيير النفس، وهو ما يعبر عنه النص القرآني: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَتْ حَتَّىٰ يَغْيِرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾⁽¹⁴⁾.

وبعد إصلاح عقيدة الفرد تأتي مرحلة بناء الفكر الفاعل، وترتبط بها الفاعلية الاجتماعية للأفكار، وعنها يقول ابن نبي: «إن من الواجب أن نرى هذا النشاط في حيويته، نراه يمنح الفرد القدرة على التكيف حسبما يعرض له من

المواقف، ثم هو ينتقل تحت رقابة نظام انعكاساته إلى المجتمع الذي يحيله نشاطا مشتركا بفضل شبكة علاقاته»⁽¹⁵⁾.

2. عوائق الفاعلية:

إنّ العوائق التي تعيق فاعلية الإنسان، وتقف في وجه كلّ انطلاقة صحيحة للإنسان نحو الحركة والبناء ترجع -في نظر مالك بن نبي- إلى نوعين، نوع ذاتي داخلي وآخر خارجي، وكل انطلاقة صحيحة تقتضي التخلص من منها جميعا.

أ. العوائق الداخلية:

يرى مالك بن نبي أنّ العوائق الداخلية التي تمنع فاعلية الإنسان تتمثل في الأفكار السلبية، والأمراض ذات الطابع النفسي، والأمراض ذات الطابع ويقول ابن نبي في ذهان السهولة وخطورته: «يتمثل في صورة النظر إلى الأشياء على أنها سهلة، وهو قائد ولاشك إلى نشاط أعمى كما كانت الحال في قضية فلسطين»⁽¹⁶⁾.

ومن الأمراض الشبيهة بالذهان ما يسميه ابن نبي الطمأنينة الأخلاقية، وفي عالمنا الإسلامي لمل فقدت النفس صفاءها منذ أمد بعيد، لم يعد أحد يؤنب نفسه أو يتأثر من خطيئته أو يبكي على ذنبه وخاصة القادة والموجهون، فقد خيم عليهم الشعور بالطمأنينة الأخلاقية.

ويضع ابن نبي الذهان والخيانة في مرتبة واحدة فيقول: «هذان الشكلا من أشكال الخيانة يتمثلان في العالم الإسلامي الحديث في صورة نوعين من الذهان، فإما أن يتمثل في صورة النظر إلى الأشياء على أنها سهلة،... وغما أن يأخذ صورة النظر إليها على أنها مستحيلة فيصاب النشاط بالشلل»⁽¹⁷⁾.

وتبدو الأزمة الصبائية في مجتمعنا في سلوكات بعض الأفراد، كأن نجد من يستورد فرو السيدات الباهظ الثمن وهو في صحراء العرب، حتى إذا أرادت السيدات استعماله لجأ لاستعمال مكيفات الهواء في درجة الصفر، وإن ترى مثلا في المصالح العامة فريقا من الناس يلبس القبعة، وفريقا آخر مازال يرتدي الطربوش، ونفهم من هذا أننا في مجتمع لم يحدد بعد اختياره بوضوح، وعندما يسقط الأنا لا شعوريا في النزعة البرجوازية بسبب عدم القدرة على دارس لا يتفق ومقتضيات الحاضر والمستقبل، وبذلك أصيبت الأفكار بظاهرة التشبث بالماضي، كأنما قد أصبحت متنفسا له⁽¹⁸⁾.

ويرى ابن نبي أنّ نزعتي الجدل والتبرير-الطاغيتين على الأعمال الأدبية والعلمية، في عصري الانحطاط والنهضة- جعلتا المتقف يهتم بالدفاع عن المجتمع وتبرير الأخطاء، وكان الجيل الذي عاصره ممن قرؤوا كتابات الأفغاني وكتابات شكيب أرسلان، وغيرهما، كانوا في الحقيقة يقرؤون أعمالا للدفاع والتبرير، وليس من أجل البناء والتوجيه.

ومن معوقات الفاعلية أيضا الأمراض ذات الطابع النفسي وهي الذهان (Psychose)، والأمراض شبه الصبائية، والقابلية للاستعمار.

والذهان مرض نفسي مصحوب بخلل في وسائل التكيف الاجتماعي والمهني والديني وباضطراب عام في الوظائف العقلية كالإدراك والحكم والاستدلال وغيرها، ويصاحبه اضطراب عميق في السلوك والشخصية.

والذهان المعروف في العالم الإسلامي نوعان: ذهان الصعوبة وذهان السهولة، وبيّن ابن نبي النوع الأول فيقول: «وذهان الصعوبة في الجزائر قام على قواعد ثلاث هي: لسنا بقادرين على فعل شيء لأننا جاهلون، ولسنا بقادرين على إنجاز هذا العمل لأننا فقراء، ولسنا بقادرين على تصور هذا الأمر لأن الاستعمار في بلادنا»⁽¹⁹⁾.

ويرى ابن نبي في اليابان نموذجا من البلدان التي استطاعت التخلص من الأفكار الميتة، وتمكنت من اقتباس الأفكار المثمرة من الحضارة الغربية، وقد كانت انطلاقتها الحضارية متزامنة وانطلاقة العالم الإسلامي حيث يقول: «إنَّ عالمنا الإسلامي واليابان قد تتلمذا سوياً حوالي عام 1860م في مدرسة الحضارة الغربية، واليوم ها هي اليابان القوة الاقتصادية الثالثة في العالم، والأفكار المميتة في الغرب لم تصرفها عن طريقها، فقد بقيت وفيّة لثقافتها ولتقاليدها ولماضيها»⁽²⁰⁾.

ويعتقد ابن نبي أن للاستعمار دورا في نشر الأفكار القائلة، وإشاعتها في بلاد المسلمين بهدف شلّ فاعلية أفراده، وإضعاف الجهاز المفاهيمي الإسلامي بحيث يسود التخلف الفكري، الذي يؤثر بدوره على الحياة الاجتماعية، ولذلك كانت أمنية ابن نبي أن تقوم في البلاد الإسلامية رابطة من المثقفين، تحمل على عاتقها مهمة الكشف عن هجمات الاستعمار على الجبهة الفكرية.

ويذكر ابن نبي أن أعراض الضعف المفاهيمي تبدو في النزعة إلى الفخر، والمديح، والتبرير، والجدال الذي يميز ثقافتنا، وهي من وسائل التغلب على مركب النقص الذي اعترى الإنسان المسلم إزاء سلطان الحضارة الغربية، ويبين ابن نبي الأثر السلبي للمديح فيقول: «حيث اتجهت الثقافة إلى امتداح الماضي أصبحت ثقافة أثرية، ولا يتجه العمل الفكري فيها إلى الأمام، بل ينتكس إلى الوراء، وكان هذا الاتجاه الناكس المسرف سببا في انطباع التعليم كلّ بطابع التمييز بين عالم أشيائه وعالم أفكاره، فإنّ هذا السلوك -في نظر مالك بن نبي لا يعدو أن يكون مرضا شبه صيباني-

وعندما يسقط الأنا لاشعوريا في النزعة البرجوازية بسبب عدم قدرته على التمييز بين عالم أشيائه، وعالم أفكاره، فإنّ هذا السلوك في نظر ابن نبي لا يعدو أن يكون مرضا شبه صيباني.

ويرى ابن نبي أن القابلية للاستعمار أشد أثرا من الاستعمار حيث يقول: «لكي نتحرر من أثر الاستعمار يجب أن نتحرر أولا من سببه، وهو القابلية للاستعمار، فكون المسلم غير حائز جميع الوسائل التي يريدها لتنمية شخصيته، وتحقيق مواهبه ذلك هو الاستعمار، وأما ألا يفكر في استخدام ما تحت يديه من وسائل استخداما مؤثرا، وفي بذل أقصى الجهد ليرفع من مستوى حياته حتى بالوسائل العارضة، وأما ألا يستخدم وقته في هذا السبيل، فيستسلم لحظة إقراره وتحويله كمّا مهما، يكفل نجاح الفنية الاستعمارية، فتلك القابلية للاستعمار»⁽²¹⁾.

والقابلية للاستعمار عند مالك بن نبي يقابلها الاستعمار الداخلي عند محمد الغزالي، وهو في نظره يمهّد للاستعمار الخارجي، ويبين هذا الأمر فيقول: «ونعني بالاستعمار الداخلي فقدان الأمم القدرة على حكم نفسها بمن تختار من أبنائها، وسقوط أزمة الحكم في أكثر الأحيان بين أناس تمقتهم الجماهير، وتتمنى زوالهم لأنهم يؤثرون شهواتهم على مصالحهم، ولا يملكون كفاية حقيقة للبقاء في مناصبهم، ومن ثمّ فهم يستديمون حكمهم بالإرهاب والاحتلال وغير ذلك، ونجاح الاستعمار الغربي في أقطار الشرق مهّد له هذه الأحوال»⁽²²⁾.

ويذكر ابن نبي وهو يعدد أمراض المجتمع المعيقة للفاعلية: الشبيئية والتكديس وغياب التوجيه الجمالي والمنطق العملي، ويقول عن مرض الشبيئية: «ومن أجل الدفاع عن العالم الإسلامي كانت المشاكل توضع ضمن حدود كمية، أي باعتبار كمّيات الأشياء الضرورية، وقد كان نفس شعار جمال الدين الذي يقول فيه -لو أنّ جميع الهنود يصبقون معا لأغرقوا الجزر البريطانية في بحر من اللعاب- يشير إلى أنّ النهضة كانت تنزلق في طريق الشبيئية»⁽²³⁾.

وأما مرض التكديس فيبدو في اقتناء الوسائل دون الحاجة إليها، وهو تكديس للأشياء، ويتعداه إلى نوع آخر هو تكديس الأشخاص بدون أن تكون من ورائه ضرورة، ويبين ابن نبي هذا النوع من التكديس فيقول: «إنّ المكان الذي

يجب أن يشغله خمسة موظفين أو مستخدمين، يوضع فيه أحيانا خمسة عشر أو عشرون، بطريقة تزود بها مشكلة البطالة العادية مع بطاقة خاصة ناشئة عن الواقع المائل في استخدامنا لموظفين دون أن نستحدث وظائفهم»⁽²⁴⁾. والمنطق العملي في تعريف ابن نبي لا يعني به ذلك الشيء الذي دونت أصوله ووضعت قواعده منذ أرسطو، وإنما يعني به كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه، أي استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معينة. والمنطق العملي يعني عند مالك بن نبي كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه، أي استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معينة، وإن غياب المنطق العملي في مجتمعنا يتمثل في افتقارنا الضابط الذي يربط بين عمل وهدفه، وبين سياسة ووسائلها، وبين ثقافة ومثلها، وبين فكرة وتحقيقها، ويقول مالك بن نبي في هذا الصدد: «إن سياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف مثلها، وإن ذلك كله لينكر في كل عمل نعمله، وفي كل خطوة نخطوها، ولقد يقال إن المجتمع الإسلامي يعيش طبقا للقرآن، ومع ذلك فمن الأصوب أن نقول: إنه يتكلم تبعاً لمبادئ القرآن لعدم وجود المنطق العملي في سلوكه الإسلامي»⁽²⁵⁾.

ب. العوائق الخارجية:

يمثل الاستعمار أحد معوقات الفاعلية في البلاد الإسلامية، وهو يفرض على حياة الفرد عاملاً سلبياً يسميه مالك بن نبي بالمصطلح الرياضي (المعامل)، ويرى ابن نبي أن الاستعمار يؤثر في حياة الفرد في جميع أطوارها من الطفولة إلى البلوغ والرجولة، حيث ينسج المستعمر بدهائه وخبثه شبكة مسمومة من الأحقاد والأفكار تحطم قيمة الفرد وتعرقل مصالحه ÷ ويستعمل الاستعمار وسائل متعددة في مقاومة الأفكار وتحطيمها، فهو يستخدم القوة، والإغراء، ولغة الدين، ويستعمل جهل الجماهير، ويلجأ إلى سلاح المال، وذلك حسب الظروف والملابسات، كما يستخدم خفايا أو سيكولوجيا، وطرق لا مرئية في شل فاعلية الشعوب، ويمنع القوى المناهضة له أ، تتجمع، ويعمل على تجزئتها، وللوصول إلى أهدافه يعتمد مبدأ الغموض والفاعلية.

3. محركات الفاعلية:

يرى مالك بن نبي أن فاعلية الإنسان تحركها إما فكرة أو مفهومية، والأفكار قد تكون دينية ويسمىها الأفكار المطبوعة، أو تكون وضعية.

أ. دورة الفكرة الدينية في تحريك فاعلية الإنسان:

نرى أنه ينبغي قبل البحث في دور الأفكار وعلاقتها بالحضارة أن نحدد مفهوم الدين، والفكرة الدينية. يقول الباحثون في مفهوم الدين: «إن كلمة الدين أخذت عن الفعل (دانه، يدينه)، أو من الفعل (دان له)، أو من الفعل (دان به)»⁽²⁶⁾.

والدين لغة يعني الملك والتصرف والمحاسبة، ويوم الدين يعني يوم المحاسبة والجزاء، ودان نفسه يعني حكمها وضبطها، والدّيان هو الحكم القاضي، وأما اصطلاحاً يعني الخضوع والطاعة والعبادة، وكلمة (الدين لله) تعني الحكم لله والخضوع له، ومن معانيه أيضاً: المذهب والطريقة التي يسير عليها المرء نظرياً وعملياً، فيقال: هذا ديني وديني أي هذا مذهبي واتجاهي.

ويقول حسن مصطفى عن مفهوم الدين في اللغات الأخرى: «في اللغتين الإنجليزية والفرنسية الدين (Religion) مشتق أساساً من اللاتينية، ويشير إلى مفهوم العبادة القائمة على الخشوع والرهبنة والاحترام»⁽²⁷⁾. ويقول مالك بن نبي في تعريف الفكرة الدينية: «هي توجيه الناس نحو معبود غيبي، ولو كان من نوع زمني أي في صورة مشروع بعيد الأمل مثل بناء مجتمع جديد يضع حجره الأول جيل، وتواصل بناء الأجيال المتتابعة»⁽²⁸⁾.

والفكرة الدينية بهذا المفهوم هي كل فكرة تحفّر الإنسان، وتتقل اهتمامه إلى عالم القيم والمثل، وتسمو بالذات إلى عالم المستقبل، ويعطي ابن نبي للفكرة الدينية تسميات أخرى فيسميها الروح، والطاقة الحيوية.

وقد ثبت تاريخيا أن الساحات التي غطّاها الحس الديني اتّسمت بالفاعلية والإنجاز والتقدّم، وهو ما يؤكده جوستاف لوبون بقوله: «إنّ المعتقدات التي تخزّب أحيانا وتبدع غالبا، أسست دول التاريخ ودعائم الحضارة الصادقة، ولولا المعتقدات لما عاشت الأمم، وينشأ عن المعتقد القوي يقين لا يزعه شيء»⁽²⁹⁾.

وقد كان ابن خلدون أول من أبرز دور الفكرة الدينية في تكوين الحضارات حيث قال في تبيين دور الدين في بناء الوازع الأخلاقي عند العرب: «إذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم»⁽³⁰⁾.

ويقول توينبي في دور العقيدة في بناء الحضارة: «إنّ وراء كلّ حضارة من الحضارات القائمة اليوم ديانة عالمية، والإنسان إذ ينشر عقيدة روحانية إنما يؤدي فعلا اجتماعيا، عظم بكثير مما يتهيأ له تحقيقه باستخدام الطرائق المادية البحتة، وللعقائد -وفق رأيه- دور خطير في مجريات التاريخ»⁽³¹⁾.

ويرى ابن نبي أنّ التحليل التاريخي يدلّ على أنّ المركب الذي رافق دوما تركيب الحضارة في التاريخ هو الفكرة الدينية، وحين تبدأ الحضارة لا يكون ثمة إلا عناصر مكدّسة هي الإنسان والتراب والوقت، ولا تبرز الحضارة إلا بدخول عنصر خارجي هو الفكرة الدينية، وحيثما فقدت الروح سقطت الحضارة وانحطّت.

ويقول المفكّر الفرنسي (دي بونالد) المعاصر للثورة الفرنسية: «إنّ ما صنع الثورات هو دوما الكتاب من الإنجيل إلى الميثاق الاجتماعي»⁽³²⁾.

ويقول ابن نبي مبينا علاقة الفكرة الدينية بالفاعلية: «الفكرة الدينية تحفّر الإنسان للبناء، حين تستنهض هممه، وتحرك فاعليته، وتحدث تغييرا في الحالة النفسية للذات وتحول حياة الفرد والمجتمع إلى حياة ذات معنى ودلالة»⁽³³⁾.

وإذا كان بعض الباحثين يعتقدون أنّ الحضارة الحديثة ظهرت بفضل تمجيد الإنسان للعقل ورفضه لقيود الدين وتعاليمه، ويرون أنّ أوروبا شهدت تطورا مذهلا مذ تنكّرت للدين، فإنّ ابن نبي يرفض هذا الرأي لأنه مبني على تحليل غير موضوعي، ويرى أنّ الحضارة الحديثة ذات جذور دينية، وأما الجانب اللاديني فيها فما هو إلا مرحلة تاريخية أفرزتها تطورات المجتمع المدفوع بشحنة دينية، ويقول موضحا: «لقد خلف اختفاء الإمبراطورية الرومانية في الواقع جميع مكونات المجتمع الروماني، من أشخاص وأفكار وأشياء على حال من الفوضى، كانت هي السمة الظاهرة لما يطلق عليه اسم العصور الوسطى»⁽³⁴⁾.

ويضيف ابن نبي قائلا: «بقدر ما كان مجتمع غرب أوربا يتحلّل ويتفكك، وبالمواد المتخلفة عن هذا التحلل ذاتها استطاعت المسيحية أن تبني المجتمع الجديد خطوة خطوة، وهو المجتمع الذي يطلق عليه في هذه الأيام المجتمع الغربي»⁽³⁵⁾.

وإنّ التعارض الذي يبدو بين الفكرة المسيحية والنهضة الأوروبية -في نظر ابن نبي- ما هو إلا تعارض مفترض، يخفي حين نعود إلى الوراثة قرنين أو ثلاثة قرون، لأنّ كلمة أوروبي ذاتها تختفي، ويستند ابن نبي في تقرير هذا الرأي على شهادة المؤرخ (غيزو) الذي يقول في كتابه «تاريخ الحضارة في أوروبا»: «تلكم هي السمة العظيمة الأصلية للحضارة الأوروبية منذ أن تطورت تحت تأثير الإنجيل، تأثيره الخفي الظاهر، المنكر والمرضي، حيث عاش القهر والحرية وكبرا معا»⁽³⁶⁾.

ومن محركات الفاعلية المفهومية أو الأيديولوجيا.

يقول حداد سليم في تعريف الإيديولوجيا: «هو مصطلح حديث النشأة صاغه (ديستوت دوتراس) في نهاية القرن الثامن عشر، وكان يقصد به الدلالة على علم الظاهرة العقلية، وهو علم عقلي لنقد التقاليد في نظر مؤلفه، ومع ماركس دلّ مفهوم الأيديولوجيا على الوعي الخاطئ الذي ينجم عن الموقف الطبقي للأفراد الاجتماعيين، ومع لينين استعاد مفهوم الأيديولوجيا مفهومه الوضعي، فقد اعتبر لينين الأيديولوجيا أسلحة عقدية تتمتع بها الطبقات الاجتماعية»⁽³⁷⁾.

ويعرف عبد الله شريط الأيديولوجيا بقوله: «إنها بصورة مبسطة لمجموعة من الأفكار والمبادئ، التي تهدف إلى تنظيم حياة مجتمع ما، في الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية»⁽³⁸⁾. ويقول عبد العزيز الخالدي في تعريف المفهومية: «إنّ المفهومية ليست صوغ أفكار شتية، ولكنها مسيرة للطاقة، والسهم الذي يعين الجماعة طريقها في التاريخ»⁽³⁹⁾.

وأما مالك بن نبي فلا يرى أيّ جدوى من تحديد معنى المفهومية إذا كان يقول على الحرفية أو عن طريق المماثلة، والأهم عنده أن نتساءل عن علاقة المفهومية بالإنسان وبالفاعلية.

ويقول مالك بن نبي عن أهمية المفهومية في القرون الأخيرة: «لقد تفتّن العالم لأهمية المفهومية، بل إنّ المفهومية أصبحت تكون جزءا من ظاهرة القرن العشرين، وإنّ البشرية بعد الحرية الكونيتين تخلّت عن علاقات القوة لترذخ لمعايير الأفكار، بحيث أصبحت الديمقراطية والاشتراكية والسلام تشكّل فواتح لجميع الدساتير الوطنية، وتطبع الاتجاه الذي يتجه صوبه تطور البشرية، ويبدو أن الأفكار الثلاث تكون مبادئ مفهومية عالمية»⁽⁴⁰⁾.

وعن الفرق بين الدين والإيديولوجيا يقول ابن نبي: «إنّ الدين يتضمّن مفاهيم مقدّسة أو متسامية، وتكون الإيديولوجيا عندما يكون ثمة نظام للقيم أو بصورة أعمّ للمعتقدات، لا يستدعي من جهة مفاهيم مقدّسة أو متسامية ومن جهة أخرى يعالج بشكل خاص التنظيم الاجتماعي والسياسي للمجتمعات أو بصورة أعمّ مستقبلها»⁽⁴¹⁾. وعن علاقة المفهومية بالفاعلية ودورها يضرب ابن نبي مثلا بالثورة الجزائرية التي قامت وقام بها الشعب الجزائري عندما توفر شرطان:

-الأول: وجود الباعث المعلن والمتمثل في الاستعمار الفرنسي.

-الثاني: وجود مفهومية للفكر والمتمثلة في الحرية والاستقلال عن الاستعمار.

وإنّ غياب المفهومية يجعل الأفكار غائبة عن جهاز الإدراك الإنساني، وحضورها ينتج عنه إنسان العقل، ولذلك فإنّ مشكلة الإنسان المسلم بدأت من غياب المفهومية كإطار محرّك لقواه العقلية والروحية والنفسية.

فالشعب الجزائري قام بالثورة التي كان باعثها المعلن هو الاستعمار بينما كان الاستقلال مفهومية عامة، ولكن لما حصل الاستقلال تراجع الإنسان الثوري وحدثت العطالة لغياب المفهومية في هذه الحالة.

ويفسر ابن نبي ذلك الموقف التاريخي الذي وقفته النساء الجزائريات في أعقاب استرجاع بلادنا للسيادة الوطنية قائلا: «إنّ النساء الجزائريات اللائي وهبن حلاهن في بداية الاستقلال أطنعن أوامر مثل هذا العمل الحافز بخلقهن لجوه المفاهيمي...»⁽⁴²⁾.

والمفهومية هي التي حركت شعبي ألمانيا واليابان المنهزمين سنة 1945م وقادتهما إلى حظائر لاشغل، فاندھش العالم بنهوضهما العجيب بعد سنوات قليلة.

ويرى محمد الغزالي أن الإيديولوجيا كان لها دور كبير في الأحداث العالمية، حيث يقول: «إنّ المؤرخين يتفقون على أنّ الانطلاقات السياسية والعسكرية الكبرى لا بدّ أن يكون وراءها فلسفة (أيديولوجية) معنوية، أو أدبية أو تشريعية أو اجتماعية، فالتأثر ملوكا العالم، ولكنهم ملوكه في معارك وحشية سريعة، وتخلّص العالم منهم خلال

معارك سريعة أيضا، ولم يتركوا أثرا لأنه ما كان يسيّرهم شيء، ومحمد علي باشا كاد أن يرث الخلافة العثمانية، ولكن لأنّ المسألة كانت ذات قوة عسكرية فقط ما وصل إلى شيء»⁽⁴³⁾.

ويضيف محمد الغزالي مبيّنا دور المفهومية بقوله: «الثورة الفرنسية كان وراءها كتابات فكرية، كتابات جاك جاك روسو، ومونتسكيو، وغيرهما، والتغيير الإسلامي الكوني كان وراءه القرآن الكريم، وهذا سرّ نجاحه، فخلال قرن امتد في العالم المعروف آنذاك كلّهُ، أما بعد أن بدأت تنتقل فلسفة القرآن الكريم، وتنتقل دعوته، فإنّ الأمة الإسلامية انتهت إلى أمم أشبه بالمغول والتتار، تقاثل بلا فلسفة وبدون وعي، وانتهى الأمر إلى ما انتهى إليه»⁽⁴⁴⁾.

وحيثما كانت المفهومية كانت الحركة، وحيثما غابت كان الفشل والتأخر، ولنا في التاريخ شواهد كثيرة منها ما وقع لعالمنا الإسلامي، فلمّا شاعت فلسفة الجبر وهي فلسفة عطلت قانون السببية تعطّلا كاملا، وقد عطّلت في السنن الكونية فتخلّفنا في عمارة الأرض، وعطّلت في السنن النفسية فسادنا التواكل وانطفاء الفاعلية.

وليس غريبا أن نجد جميع الديانات تهتم بالمفهومية كشرط ضروري لدعوة الإنسان، فالجنّة قبل أن تكون دارا للمؤمنين بعد الموت هي مفهوم وجداني يحدث الذات على العمل.

4. مظاهر الفاعلية:

إنّ الفاعلية تنمو تدريجيا مع تعقد المصلحة العامة، والنشاط الفردي بمقدار ما يكون موجها للمصلحة العامة بمقدار ما تقدّم له ضمانات اجتماعية، وهذه الضمانات يعطيها ابن نبي مفهوما خاصا يختلف عن نظرية اقتصاد السوق وتختلف عن النظرية الماركسية، ويتخلص مفهومها في قوله: «إنّ كل طاقة اجتماعية تصدر حتما من دوافع القلب ومن مبررات وتوجيهات العقل وحركات الأعضاء»، وكل نشاط اجتماعي مركب من هذه العناصر، والفاعلية تكون أقوى في الوسط الذي ينتج أقوى الدوافع وأقوم التوجيهات وأنشط الحركات⁽⁴⁵⁾.

وعناصر الفاعلية مرتبطة بالإنتاج يلعب فيه التوتر دور المكثف.

وقد جاء تعريف التوتر في المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية مايلى: «هو مصطلح رواقى، يقصد به الجانب التطبيقي الذي يمنح الشيء انسجاما وافق طبيعته، سواء كان ذلك في النفس الإنسانية أو في العناصر المادية، وبه تميل النفس نحو الأشياء لتعرفها معرفة حقّة أو لتعصم ذاتها وتتحصن ضد المؤثرات الخارجية»⁽⁴⁶⁾.

ويقول مالك بن نبي في تعريف التوتر: «عندما ننظر إلى اليد والقلب والعقل على أنهم أساس الفاعلية... يمكن أن نرد المبررات، والدوافع والأسباب القريبة والبعيدة، التي تدفع إلى خلق نشاط فعال إلى حالة خاصة هي التوتر»⁽⁴⁷⁾.

ويضيف ابن نبي في توضيح مفهوم التوتر قائلا: «فاليد تأخذ ببطش وعنف في حالة التوتر التي يشير إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾»⁽⁴⁸⁾، ونشاط العقل والقلب مع حركة اليد تخلق المعجزات في ظروف معينة، تعبّر عن حالة التوتر»⁽⁴⁹⁾.

ويقدم ابن نبي مثالا حيّا عن عمل اليد في الحالة النفسية التي تكمن وراءها قوة الفاعلية، بالحادثة التي وقعت للمغام ابن باديس حينما حاول مجرم مدفوع من قبل الاستعمار اغتياله، وكان ذلك المجرم فظّا ضخّم الجسم، ولكنّ الشيخ بيده النحيلة، وهي أضعف من أصبعي الخنجر، مسك المجرم حتى أنتته النجدة، ومنعت المجرم من تنفيذ خطّته الإجرامية.

وللتوتر مظاهر مختلفة تجسدها دوافع القلب وتوجيهات العقل وحركات الأعضاء، فهناك التوتر النفسي والأخلاقي والسياسي والاقتصادي.

ومن أمثلة النوع التوتر النفسي ما أبرزته الآية من مقدار التوتر المتفجر في ضمائر ثلاثة من الصحابة -تخلّفوا عن غزوة تبوك المشهورة- حيث جاء في خاتمة الآية: «وعلى الثلاثة الذي خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض

بما رحبت، وضأقت عليهم أنفسهم، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا، إِنَّ الله هو التواب الرحيم»⁽⁵⁰⁾.

ويضرب ابن نبي مثالا آخر من أمثلة التوتر النفسي حيث يقول: «كان دفاع المجتمع الإسلامي بقوة السلاح حينما تهددت قدرته بعد وفاة الرسول بحادثة الردة.. ولم يكن بوسع المجتمع أن يواجه تلك الردة لولا أنه احتفظ بإرادته البكر أي بذلك التوتر الداخلي الذي منحه إياه الإلهام القرآني وتعاليم الرسول»⁽⁵¹⁾. ومن التوتر الأخلاقي ما أقدمت عليه تلك المرأة العربية في عهد الرسول بمحض إرادتها، ودون إكراه، حيث طلبت إقامة الحد عليها لاقترافها الفاحشة، وكذلك سلوك عمر بن الخطاب عندما طلب من رعيته النصح والتقويم، إذا رأوا منه انحرافا أو اعوجاجا.

ومن أمثلة التوتر في المجال الاقتصادي يقول ابن نبي: «إن جميع القوى الاقتصادية من إنتاج ميكانيكي وإطارات فنية وفعالية رؤوس الأموال، ترتبط من حيث التأثير والفاعلية بحالات خاصة، تتصل بالعوامل الإنسانية حتى إن الآلة الميكانيكية ذاتها يزيد وينقص إنتاجها حسب ما يعتري الوسط الإنساني الذي تعمل فيه من حالات توتر أو فتور»⁽⁵²⁾.

وإذا كان ابن نبي يرى في التوتر بأشكاله مظهرا للفاعلية عند الإنسان، فإن توينبي يرى أن التحدي هو الدافع الحيوي إلى نشوء الحضارة، وهو مظهر الفاعلية، لأنه سبب هام في الاستجابة، حيث يستفز الجماعة لتنهض وتواجه ظروفها وعدوها، كما يعتبر توينبي فترات التحدي فترات خير للجامعة، لأنها تعيد إليها شبابها وفعاليتها. قائمة المراجع:

- 1 - إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، ص: 136-137.
- 2 - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج01، ص: 152.
- 3 - احمد رضا، معجم متن اللغة، المجلد 04، ص: 429.
- 4 - ابن منظور محمد، لسان العرب المحيط، المجلد02، ص: 1112.
- 5 - الجرجاني علي بن محمد، التعريفات، ص: 75.
- 6 - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج02، ص: 152-153.
- 7 - بدري أحمد زكي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ص: 29.
- 8 - الجرجاني علي بن محمد، التعريفات، ص: 70-71.
- 9 - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج02، ص: 136.
- 10 - المرجع نفسه، ص: 156.
- 11 - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: 72.
- 12 - مالك بن نبي، في مهبط المعركة، ص: 146.
- 13 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص: 48.
- 14 - سورة الرعد، الآية: 12.
- 15 - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: 72.
- 16 - المصدر نفسه، ص: 80.
- 17 - المصدر نفسه، ص: 87.

- 18 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص: 54.
- 19 - المصدر نفسه، ص: 80.
- 20 - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص: 151.
- 21 - المصدر السابق، ص: 87.
- 22 - محمد الغزالي، الإسلام وأوضاعنا الاقتصادية، ص: 102.
- 23 - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص: 47.
- 24 - المصدر نفسه، ص: 51.
- 25 - مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: 96.
- 26 - حسن علي مصطفى، نشأة الدين، ص: 08.
- 27 - المرجع نفسه، ص: 09.
- 28 - مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: 51.
- 29 - سليمان الخطيب، أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، ص: 27.
- 30 - المرجع نفسه، ص: 76.
- 31 - المرجع نفسه، ص: 77.
- 32 - مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، ص: 12.
- 33 - مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: 72.
- 34 - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: 55.
- 35 - المصدر نفسه، ص: 55.
- 36 - المصدر السابق، ص: 55.
- 37 - حداد سليم، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ص: 84.
- 38 - عبد الله شريط، المشكلة الإيديولوجية وقضايا التنمية، ص: 64.
- 39 - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص: 23.
- 40 - المصدر السابق، ص: 93.
- 41 - حداد سليم، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ص: 85.
- 42 - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص: 105.
- 43 - محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن الكريم، ص: 222.
- 44 - المرجع نفسه، ص: 223.
- 45 - مالك بن نبي، تأملات، ص: 39.
- 46 - المعجم الفلسفي، لمجمع اللغة العربية، ص: 57.
- 47 - مالك بن نبي، تأملات، ص: 35.
- 48 - سورة مريم، الآية: 12.
- 49 - مالك بن نبي، تأملات، ص: 35.
- 50 - سورة التوبة، الآية: 118.

⁵¹ - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار، ص: 45.

⁵² - مالك بن نبي، تأملات، ص: 53.